

عبقري

".. لم أر عبقرياً يفري فريه^(١) .."

كلمة قالها النبي عليه السلام في عمر رضى الله عنه، وهى كلمة لا يقولها إلا عظيم عظماء، خلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال.

فمن علامات العظمة التى تحمى موات الأمم أن تختص بقدرتين لا تعهدان فى غيرها، أولاهما أن تبتعث كوامن الحياة ودوافع لعمل فى الأمة بأسرها وفى رجالها الصالحين لخدمتها، والأخرى أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس فتعرف بالبدية الصائبة والوحي الصادق فيم تكون عظمة العظيم، ولأى المواقف يصلح، وبأى الأعمال يضطلع، ومتى يحين أوانه وتجب ندبته^(٢) ومتى ينبغى التريث فى أمره إلى حين.

كلتا القدرتين كان لهما الحظ الوافر فى سيرة عمر بن الخطاب.

فأين - لولا الدعوة المحمدية التى بعثت كوامن العظمة فى أمة العرب - كنا نسمع بابن الخطاب؟ وأى موضع له كان من مواضع هذا التاريخ العالمى الذى يزخر بكبار الأسماء؟

إنه الآن إسم يقترن بدولة الإسلام ودولة الفرس ودولة الروم وكل دولة لها نصيب فى التاريخ. فأين كنا نسمع عمر لولا البعثة المحمدية؟

لقد كان ولا ريب خليقاً أن يستوى على مكان الزعامة بين بنى آله الأقربين أو بين قریش الكبرى، ثم ينتهى شأنه هناك كما انتهى شأن زعماء آخرين لم نسمع لهم بخير. لأنهم عظموا أو لم يعظموا. يعطون البيئة كفاءة

(١) فرى الجلد: قطعه ليصلحه، وفرى الفرى أتى بالعجب. والمعنى أن عمر عبقرى منفرد

فى عمله فلا يقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه.

(٢) اسم من ندبه للأمر أى دعاه.

ما تطلب من جهد ودراية، وهى تطلب منهم ما يذكرون به فى بيئتهم، ولكنها لا تطلب منهم ما يذكرون به فى أقطار العالم البعيد.

وقد كان عمر قوى النفس بالغاً فى القوة النفسية، ولكنه على قوته البالغة لم يكن من أصحاب الطمع والاقترام، ولم يكن ممن يندفعون إلى الغلبة والتوسع فى الجاه والسلطان بغير دافع يحفظه إليه وهو كاره. لأنه كان مفطوراً على العدل وإعطاء الحقوق والتزام الحرمات ما التزمها الناس من حوله. وكان من الجائز أن يهيجه خطر على قبيلته أو على الحجاز ومحارمة المقدسة فى الجاهلية فينبى لدفعة ويبلى فى ذلك بلاء يتسامع به العرب فى جيله وبعد جيله، ولكنه لا يعدو ذلك النطاق ولا هو يبالى أن يمعن فى بلائه حتى يعدوه.

بل كان من الجائز غير هذا وعلى نقيضه.

كان من الجائز أن تفسد تلك القوة بمعاقرة الخمر والانصراف إليها. فإنه كان فى الجاهلية كما قال "صاحب خمر يشربها ويحبها" وهى موبقة^(١) لا تؤمن حتى على الأقوياء إذا أدمنوها ولم يجدوا من زواجر الدين أو الحوادث ما يصرفهم عنها، ويكفهم عن الإفراط فى معاطاتها.

فعمر بن الخطاب الذى عرفه تاريخ العلم وليد الدعوة المحمدية دون سواها. بها عرف وبغيرها لم يكن ليعرف فى غير الحجاز أو الجزيرة العربية.

أما القدرة الأخرى التى يمتاز بها العظيم الذى خلق لتوجيه العظماء فقد أبان عنها النبى عليه السلام فى كل علاقة بينه وبين عمر من اللحظة الأولى، أى من اللحظة التى سأل الله فيها أن يعزبه الإسلام، إلى اللحظة التى تدب فيها أبا بكر للصلاة بالناس وهو - عليه السلام - فى مرض الوفاة.

(١) موبقة: مهلكة.

سير غوره واستكنه عظمته، وعرفه فى أصلح مواقفه فعرف الموقف الذى يتقدم فيه على غيره والموقف الذى هو أولى بتقديم غيره وعليه .

ولست هى مفاضلة بين رجلين ولا موازنة بين قدرتين . ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذى ينبغى أن يوضع فيه، والمهمة التى ينبغى أن يندب لها، والوقت الذى يحين فيه أواته .

وربما رأينا فى زماننا هذا رئيساً يوصى لنصير بالوزارة ويوصى لغيره بقيادة الجيش، فلا تقول إنه يفاضل بين النصير أو أنه يرجح أحدهما على الآخر فى نيران الكفاءة . وإنما يختار كلا منهما لموضعه الوقت الذى يحتاج إليه، ولا غضاضة على أحد منهما فى هذا الاختيار .

فالنبي عليه السلام كان يعلم من هو أبو بكر ومن هو عمر . وقد عادل بينهما أجل معادلة حين قال : (إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد الحجارة، وأن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال : "من تبغى فإنه منى، ومن عصانى فإنك غفور رحيم، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" ومثلك يا عمر مثل نوح قال : "رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً" ومثلك كمثلك موسى قال : "ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم" .

كان النبي عليه السلام يعلم - كما قال - أن عمر أشد المسلمين فى الله، ويعلم أن فى أبى بكر لنا وهودة . فجمع للإسلام المزيين حين اختار أبا بكر للصلاة وضمن هذا الاختيار معنى من معانى الاستخلاف . أو كما جاء فى بعض الروايات أنه نص على استخلاف أبى بكر بالقول الصريح .

فتعزيز الإسلام بعد نبيه كان فى حاجة إلى كثير من الهودة والمجازة . وكان كذلك فى حاجة إلى كثير من الشدة والصرامة . ولن نذهب شدة عمر

إذا احتاج إليها أبو بكر في محنة يشتد فيها اللين الوديع . إنما الخوف أن يذهب لين أبي بكر إذا أشتد عمر، ولا خوف من أن يلين عمر وأبو بكر شديد . فإن الموقف إذا استنفد حجج الرحمة حتى يلجأ فيه أبو بكر إلى البأس ويصر عليه فأقرب شيء أن يعدل عمر عم لينه وأن يثوب إلى المعهود من صرامته ولدده^(١) .

وكان النبي عليه السلام يعلم أن احتمال التبعة أو "المسؤولية" خليف أن يبذل أطوار النفوس في بعض المواقف والأزمات، فينجح اللين إلى الشدة وبعجج الشديد إلى اللين . لأننا إذا قلنا أن رئيساً أصبح يشعر بالمسؤولية فمعنى ذلك أنه أصبح يراجع رأيه فلا يستسلم لأول عارض يملية عليه طبعه، ولا يقنع باللين أول وهلة إذا كان من دأبه اللين، ولا بالشدة أول وهلة إذا كان من دأبه الشدة . ومن هنا ينشأ الاختلاف بين موقف الرجل وهو مسئول وموقفه وهو غير مسئول .

وهذا الذي ظهر أعجب ظهور في موقفى الصاحبين من حرب الردة . فإن عمر الشديد قد أثر الهوادة وأبا بكر الرفيق قد أثر القتال وأصر عليه . وكان عمر يقول: "إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحي والملائكة يمدّه الله بهم وقد انقطع ذلك اليوم" ثم يقول للخليفة: "الزم بيتك ومسجدك فإنه لا طاقة لك بقتال العرب" . وكان أبو بكر يقول متسائلاً: "أئن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب؟ والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها لو كرهه المشركون، قوله الحق ووعد الصديق، (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) . . (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) . والله أيها الناس لو متعونى عقلاً لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم بالله وهو خير معين!"

(١) اللد: شدة الخصومة .

هنالك بلغت التبصرة بوجوه الرأى المختلفات غاية مداها، وجاء عمر بقصارى ما عنده من حجج الرأى الأخر وضحت المناهج واستقر العزم والتقوى الصاحبان عليه، فكانت شدتهما فى الحق شدتين.

وهب الأمر مع هذا قد اختلف فى موقف الصاحبين فما أبو بكر إلى السلم والمسامحة، فأين كنت شدة عمر ذاهبة عنه فى هذه الحال؟ أغلب الظن أنه الذى كان يتولى يومئذ أن ييسط وجه الشدة فى معاملة المرتدين. لأنه يعلم أنه المستول عن بسط هذا الودة دون فيره، فلا تفوت الإسلام مزية من مزايا الصاحبين.

إن محمد عليه السلام قد عرف من هم رجاله وما هو الموقف الذى هم مقبلون عليه وبعد وفاته. فعرف الموضع الذى يضع فيه كلا منهم والعمل الذى يتولاه خير ولاية فى ذلك الموضع. ولم يفته أن يحسب حساب التبعة وما فى احتمالها من ضمان للأخلاق الصالحة والعقول الرابحة، وأبو بكر الصديق وعمر من خيرة أصحاب هذه الأخلاق وهذه العقول.

ولا يحسب حاسب أننا نفسر الأمور بما كشفته لنا الحوادث بعد وقوعها ولم يكن مقصوداً فى النيات قبل ذلك. فإن الذى يحسب هذا الحسبان يخطئ تلك الخطأة الشائعة التى لا تلبث على أقل من الرؤية والمراجعة: يخطئ فى وهمه خطاه الذين يتخيلون أن هذه السياسات العالية من بدع الزمن الأخير وليست هى من البدع فى زمن كان. لأن العظمة لم تكن قط وقتاً على العصر الحديث، ولاسيما العظمة التى ترجع إلى الفطرة القويمية والبدية النافذة والنظر السديد.

فكل هذا التقدير الذى أجملنا شرحه كان تقدير قصد وتدبير، وكان مفهوماً على البدهة بين ولاية الأمر فى تلك الآونة، ملحوظة بينهم فى مناجاة النيات قبل أن نلحظه نحن فى عصرنا هذا من تفسير حوادث التاريخ.

وإلى ذلك أشار عمر في قول صريح لمن هابوه وتحذثوا بخوف الناس منه: "بلغنى أن الناس هابوا شدتى وخافوا غلظتى وقالوا: قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، ثم اشتد علينا وأبو بكر وإلينا دونه. فكيف وقد صارت الأمور إليه؟ ومن قال ذلك فقد صدق، فقد كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه. وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكما قال الله، بالمؤمنين رؤوف رحيم، فكنت بين يديه سيقاً مسلولاً حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى. فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد. ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعتة وكرمه ولينه، فكنت خادمه وعونه أخلط شدتى بلينه، فأكون سيقاً حتى يغمدونى أو يدعنى فأمضى، فلم أزل معه كذلك حتى قبضة الله عز وجل وهو عنى راض، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد، ثم أتى قد وليت أموركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت^(١) ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين: فأما أهل السلامة والدين والقصد فإنا ألين لهم من بعض لبعض..".

بل ظهرت آثار الشعور بالتبعة بعد موت النبى والحال على أشده فى يوم السقيفة، والمسلمون مختلفون على من يلى الأمر بعد محمد حتى قيل فيما قيل: من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير!

ففى تلك المحنة التى تشخص فيها الأبصار وتعظم التبعيات وتودى زلة الساعة فيها بالكثير الذى لا تستدركه الأعوام، كان عمر الحاد الشديد يخشى بوادر الحدة من أبى بكر ويهوى الكلام اللين ليعالج الأمر بالمرفق والتؤدة، ويقول فيما رواه عن محنته ذلك اليوم: "وكننت أدارى منه بعض الحد - أى

(١) أضعف: زادت إضعافاً.

الحدة - فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك! فكرهت أن أغضبه.
فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم منى وأوقر^١

عمر الحداد الشديد يحاذر من بوادر أبى بكر، وأبو بكر الحليم الوديع
يكف عمر عن الكلام، فيطيع!

هؤلاء الرجال يعرفهم صاحبهم، وهذه المواقف يعرفها صاحبها، وهذه
مسألة فصل فيها الزمن ولم يبق لنا تمن الذين نعود إليها ونستخلص عبرتها
إلا أن نراقب ما فيها من آيات الإعجاز، وسوابق النظر البعيد.

ما وضع أبو بكر خيراً من موضعه وهو يلى الإسلام والخطر من داخل
أهله، والطب الذى يطهم به هو طب التآلف والإحجام عن السطوة ما كان
إلى الإحجام عنها سبيل.

وما وضع خيراً من موضعه وهو يلى الإسلام والخطر عليه من أعدائه
المحذقين به، والطب الذى يطهم به هو طب الصلابة والحزم الذى لا
ينكل^(١) عن صراع.

وكأنما توقع النبي أن أيام أبى بكر معدودات ولكنها الأيام التى تحتاج
إليه وتكفى لإنجاز عمله. وتوقع أن يأتى عمل عمر فى حينه المقذور فلا
يفوت الإسلام أن ينتفع بمقدرته فى عهد أبى بكر ولا فى عهده، نقول هذا
على الترجيح ومن حقنا أن نقوله على التوكيد، لأن حديث النبي فيه غنى
عن التخمين والتأويل. قال عليه السلام: " رأيت فى المنام أنى أنزع بدلو بكرة
على قليب^(٢) فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً^(٣) أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، والله يغفر
له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً^(٤) فلم أرى عبقرياً فريه حتى
روى الناس وضربوا بعطن^(٥) ".

(١) ينكل: يجين. (٢) قليب: بئر. (٣) ذنوباً: دواو.

(٤) الغرب: الدلو العظيمة. (٥) عطن: مريط الإبل حول الماء.

وفهم فقهاء الإسلام أن ضعف التزعم هو قصر المدة وانصراف العزم إلى حرب الردة، وأن فيض الرى على يد عمر هو فيض العبقرية التي ينفسح لها الأجل وتنفسح أمامها منادح العمل، ويؤتى لها من السبق مالا يؤتى لغير العبقرين.

ولنا أن نفسر العبقرية بمعناها الذى يفهمه الأقدمون أو بمعناها الذى نفهمه نحن المحدثين، فكلا المعينين مستقيم فى وصف عمر بن الخطاب... .
أتراها على كلا العيين شيئاً غير التفرد الابتكار؟ كلا. ما للعبقرية مدلول يخرج عن صفقته من هذه الصفات. من يكتب تاريخ عمر فقد يجد فى النهاية أنه يكتب تاريخاً "لأول من صنع كذا أول من أوصى بكذا" حتى ينتهى بسرد هذه "الأوليات" إلى عدد العشرات.

وتلك هى العبقرية التي لا يفرى فريها أحد كما قال صاحبه وأعرف الناس به، صلوات الله عليه.